

الحب بين تراثين

التروبادورز الفرنسيون والعشاق العذريون

يبدو ان الله خلقها من ياقوت ومن بلور
وليس من طين (٣) .

ويستطرد الشاعر في ذكر تفاصيل ذلك الجمال فيقول :

قلبي رفيقك الدائم انلازم ، جاهني رسولا منك ،
فصور لي شخصك الطريف النبيل ، وشعرك
الكستنائي الجميل ، وجهتك الناصعة كالزئبق ،
وعينيك الضاحكتين المرحتين ، وبشرك البيضاء
التي فاقت الورود كلها بياضا وحمرة (٤) .

ويقارن ارنوت دانيال حبيسته بكل جميلات الارض فيجدها تفوقهن
جميعا ، بل لا يكاد يجد وجها للمقارنة بسبب تفوق الحبيبة ،
فهو يقول :

اما بخصوص الجمال ، فالاخريات يتضاءلن حتى ان
اجملهن لتقع دون حبيبتني ان قيست معها
بمقياس الحسن (٥) .

ويقول الشاعر الانكليزي ان جمال كرسيدا فاق كل جمال ، فبدت
ك مخلوق سماوي له صفتا الكمال والخلود ، ذلك الكلام يأتي على لسان
ترويلس واصفا حبيسته :

Nas non so fair for passynge every wight
So aungelik was hir natif beaute ,
That like a thing inmortal seded she ,
As doth an hevenyssh perfit creature ,
That down were sent in scornynge of nature .
(105 - 100 . 1)

ويستطرد جوسر فيصف جمال المرأة المحبوبة بالتفصيل: ذراعها،
ظهرها ، جانبها ، صدرها وعنقها ، نعموتها وبياضها وامتلاء جسمها
فيقول :

Hire arms smale , hire strenghte bak and soft ,
Hire sydes loge , flesshly , smoth , and white

Ibid. , 14. (٣)

Ibid. , 51. (٤)

Quoted by Chaytor, The Troubadours of Dante, (٥)
161.

٣

المرأة

دراسة مقارنة

يعتبر الحب (X) الذي عبر عنه التروبادورز في اشعارهم ثورة
حررت المرأة وجعلت منها هدفا ساميا ومثلا عاليا يسمى اليه الرجل
باذلا ومضحيا ومتحليا بكل ما يتحلى به الرجال من خصال . فالمرأة
بعد تلك الثورة لم تعد - كما كانت - اداة لاشباع غريزة الرجل،
او مجرد مربية لاطفاله ، ولم تعد خادما مطيعة او اختا قاتنة كما
كانت في عصور المسيحية الاولى ، ولا شيطانا رجيمًا كما هي في نظر
الكهان . لم تعد المرأة هذا ولا ذلك ، بل تسامت فوق حدود الانسانية
فوصلت الى السماء واصبحت مصبودة . (١) تلك المصبودة هي المثل
والنموذج للأنثى . فجمالها الجسدي ما فوقه جمال ، وحديثها ما
بعده حلاوة ، وخلقها لا عيب فيه ولا نقص ، كل تلك الزايبا والصفات
اغدقها الرجل على المرأة وعرفت من خلال اشعاره واقواله . فقد
كشف لنا الادب عن امرأة كاملة الخلق والخلق ، لولا انها متمنمة
متحفظة مما يزيدا جلالا في عالم الحب ، ويجعل حبيبتها معلقا بين
خوف ورجاء وقرب وثناء ، فهو ابدا « يرجو ويتقي » . تلك هي صورة
المحبوبة في ادب الغرب ، وهي الصورة نفسها التي عرفناها في ادبنا
العربي كما سيظهر من المقارنات التي سنوردها .

ان الحبيبة دوما اجمل النساء ، بل هي اجمل خلق الله جميعا.
فالتروبادور ارنوت دي مارويل برينا ان حبيسته تفوق الاخريات جمالا
وذلك بمقارنتها بالشمس ، فيقول :

جمالها فاق كل جمال ، كما فاق ضياء الشمس
كل ضياء . (٢)

ويخيل اليه لجمالها انها لم تخلق من الطين كالاخرين فيقول :

(X) راجع القسم الاول من هذه الدراسة في عدد الاداب الماضي.
E. E. Lucka, the Development of the Sex Relati- (1)
on, 60. See also, Lewis, op. cit. , 2-3 , Rougemont, op.
cit. , 78, Singer, op. cit. , 32-52 , and Valency, op. cit.
55-68.

Quoted by Chaytor , The Troubadours in England, (٢)
d, 110.

لها خلق طب وشخصية تفيض بالظرف والمرح ، ما رايت
مثيلا لها ، ذات قدر وجمال ، فضيلة وحكمة ، فوق
ما استطيع وصفه لك . (١٢)

ويعود الشاعر نفسه في مكان اخر فيخبرنا انه - وان حاول
فليس بمستطيع ان يجد فيها اي نقص او عيب !

لا استطيع ذكرها بسوء ، اذ ليس فيها ما يعيب ،
ولو كنت وجدت فيها عيبا واحدا لذكرته ، ولكني
لم أجد ، فماذا أقول ! (١٤)

كذلك يصور جوسر - كرسيدا كشخصية ممتازة جديرة بالشاء
حتى من قبل الملوك ، اي انه يجعل الاميرات والامراء يتمدحونها ،
وينعتونها بالذكاء وضبط النفس وحسن التصرف ونبل الاخلاق :
Hire governaunce , hire wif and hire
Manere comendedden , it joie was to here .
(15 - 210 , 111)

اما في تراننا العربي فنقرأ ان المجنون سئل يوما عما اعجبه في
ليلى ، فقال :

كل شيء رايت وسمعت منها اعجبني - والله ما رايت شيئا
منها قط الا كان في عيني حسنا وبقلبي علقا ، ولقد جهدت
ان يقبح منها عندي شيء او يسمع او يصاب لاسلو عنها ،
فلم أجده .
وقال يصفها :

بيضاء باركها النعيم فصاغها بلياقة فادقها واجلها (١٥)
ويجمع جميل في وصفه بثينة جمال الجسد وحلاوة الحسديت
والرزانة والوقار فيقول :

فراء ميسام كان حديثها در تحسدر نظممه منثور .
مخطوطه الكتين ، مضرة الحشا ربا الروادف ، خلقها كور
لا حسنها حسن ، ولا كدلالها - دل ، ولا كوقارها توفير (١٦)
ويصف كثير عزة بالنعومة وحسن الحديث والحياء فيقول :

من الخفات البيض ود جلسها اذا ما انقضت احدونة لو تعيدها
منعمة لم تلق بؤس مبهشة هي الخلدفي الدنيا لم يستفيدها (١٧)
اما ابن زيدون فينعت حبيبته بعذوبة الخلق وجمال الخلق وحسن
الحديث فيقول :

له خلق عذب وخلق محسن وظرف كعرف الطيب او نشوة الخمر
يعلل نفسي في حديث تلذه كمثل المنى والوصل في عقب الهجر (١٨)
هذه المشوقة التي تتسم بالجمال والرقة والجلال ، هي نفسها
المشوقة الممثلة في تعذيب الحبيب بتمتعها وتحفظها وبرودها السذي
يصل الى عدم المبالاة . تلك ظاهرة نستشفها من اقوال الشعراء
العشاق سواء اكانت تلك الاشعار اوروبية او عربية . فبرنارد يصف
حبيبته بالجمال ، لكنه يتهمها بالبخل والبرود والتمنع فيقول :

ايها المخلوق الحلو الساحر البخيل ، اللطيف الفضي
التعالي ، المليح الجميل فوق ما ينبغي ، يا حبيبي
التي لا احب سواها ، اسالك باسم الرحمة فقط ان
تشفقي علي . (١٩)

ونحن اذ نعود الى تراننا ونقرأ ما لدينا من تصوير الشاعر
لمشوقته نجدها دوما مثلا ونموذجا للجمال الانثوي ونبل الخلق
وحلاوة الحديث ، ونحس ان وصف الحبيبة في الادبين الاوروبي والعربي
متشابه الاسلوب ومتماثل المعنى . فجميل لا يكتفي بنعت بثينة بالبدر ،
بل يخبرنا ان الله قد فضلها واجتباها وخصها بحسن فريد بين
الناس كما افرد وخص ليلة القدر بالفضل بين الليالي ، فيقول :
هي البدر حسنا والنساء كواكب وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا على الناس مثلما على الف شهر فضلت ليلة القدر (٦)
ويعطي جميل تفاصيل الحبيبة ، فيذكر لون بشرتها وعينيها وشعرها
ويخبرنا عن حياتها واتزانها فيقول :

بيضاء خالصة البياض كانها قمر توسط جناح ليل اسود
وترى مدامعها ترقرق مقلصة سوداء ترغب عن سواد الاشمد
خود اذا كثر الكلام تصودت بحمي الحياء وان تكلم تقصد (٧)
ويصف في مكان اخر عينيها وصدرها ونحرها فيقول :
سبتي بعيني جؤد وسط ربرب وصدرد كفاتور اللجين وجيد (٨)
وكثير يدخل عزة والشمس في مباراة جمال ويجعل للمباراة حكما
يقضي بفوز الحبيبة :

لو ان عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن - عند موفق - لفضي لها (٩)
اما في بغداد فيخطب ابن الاحنف حبيبته قائلا :

ان النساء حسدن وجهك حسنه حسن الوجوه لحسن وجهك حاسد
جال الوشاح على قضيب زانه رمان صدر ليس يقطف ناهد (١٠)
ثم يعود في مكان اخر ليخبرنا شيئا عن جمال حبيبته السماوي الذي
جعلها تعلق على منزلة البشر :

كانما كان في الفردوس مسكنها فجات الناس لايات والعبر
لم يخلق الله في الدنيا لها شبا اني لاحسبها ليستمن البشر (١١)
ويكتفي ابن زيدون بوصف حبيبته ، فالوصف يكشفها للناس
اذ لا ثاني لها بينهم جمالا :

ريب حسن كان الله انشاء مسكا وقدر انشاء السورى طينا
او صافه ورقا محضا وتوجه من ناصع الثبر ابداعا وتحسنا
كانما انبتت في صحن وجنته زهر الكواكب تعويدا وتزيينا
اذ انفردت فما شوركت في صفة فحسبنا الوصف ايضا حاوتيينا (١٢)

ان اوصاف الجمال الجسدي للمرأة والتي قدمنا نماذج لها من
الادبين الاوروبي والعربي ، لا تدع مجالا للشك في ان المشوقة في كلنا
الحاليتين ليست فكرة مجردة مطلقة ، وليست هي الها خفي عن
الناس سره ، بل هي امرأة حقيقية عاشت كما عاش سواها من النساء .
وان كان الشعراء قد اكدوا وبالغوا في وصف جمالها الجسدي ،
فانهم في الوقت نفسه لم ينسوا او يهملوا جمالها الخلق . فبرنارد
يصف لنا حبيبته بعذوبة الخلق والظرف والمرح بالاضافة الى جمالها
الجسدي ، فيقول :

(١٢) ديوان جميل بثينة ، ٤٤ .
(٧) المصدر نفسه ، ٢٢ .
(٨) المصدر نفسه ، ٢٢ .
(٩) ديوان كثير عزة ، تحقيق احسان عباس ، ٨٠ .
(١٠) ديوان العباس بن الاحنف ، دار صادر ، ١٠٢ .
(١١) المصدر نفسه ، ١٦٦ .
(١٢) ديوان ابن زيدون ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ٩٢ - ٩٤ .
(١٣) Bernard, op cit. , 119 .
(١٤) Ibid. , 73 .
(١٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ١ ، ٤٧٦ .
(١٦) ديوان جميل بثينة ، ٥٠ .
(١٧) ديوان كثير عزة ، ٢٠٠ .
(١٨) ديوان ابن زيدون ، ٧٨ .
(١٩) Bernard, op. cit. , 50 .

وفوق هذا فان لها من المزايا ما يجعلها جديرة بتلك المنزلة العليا ، اذ ان لها القدرة على ان تسقم الحبيب وتشفيه ، او تميته وتحييه ، بالاضافة الى كونها قادرة على ان تسعده وتشقيه. تلك هي القدرات - او الكرامات - التي تتمتع بها المرأة والتي يعترف لها بها كل المحبين . اما كون المرأة المحبوبة تحل المرتبة العليا في عالم الحب ، فهذا مبع ومعترف به . فهي بموجب قوانين الحب صاحبة الكلمة الاولى في قبول الحب الذي يقدمه لها الرجل او رفضه . ذلك المبدأ وارد فيما كتبه الاوربيون والعرب وفيما نظمه الشعراء العشاق في كلا العائين . ففي اوربا نقرأ لاندريس ما يلي :

ان الاختيار في امر الحب متروك للمرأة ، فهي حين تحب من قبل اي رجل ، يكون باستطاعتها ان ارادت ان تبادله الحب ، والا فبامكانها ان ترفضه . (٢٩)
ويذكر اندريس في احدي قواعده ما يلي :
اما ما يأخذه الرجل من المرأة ضد ارادتها فلا نكحة له . (٣٠)

ويؤكد اندريس وجوب اطاعة الرجل لاوامر السيدات ، والعمل جاهدا في سبيل مرضاتهن ، فيقول ناصحا اياهم :
كونوا مطيعين لاوامر السيدات ، واجاهدوا كخير جنود في خدمة الحب . (٣١)

اما التروبادورز فقد اكدوا الشيء نفسه في اشعارهم ، اذ يخبرنا بالازول انه يعاهد الحبيبة على الحب والوفاء ، وينتظر مخلصا ما سوف تقرره من قبولها او رفضها حبه فيقول :

اشتاق ان ابقي بقربك دون شرط ، ولك ان تقرري ان كنت ستوليني المعروف ام لا ، اختاري ما ترغبين في امري ، ولن اعمل شيئا صغيرا او كبيرا الا بمشيئتك . (٣٢)

ويؤكد هذا الشاعر في مكان اخر طاعته لاوامر الحبيبة فيقول :
برغبة صادقة ، وقلب مخلص امين ، اعاهد نفسي على تنفيذ اوامرك ، الا اذا طلبت مني ترك هواك ، فهذا امر لا طاقة لي على تنفيذه . (٣٣)

ويبلغ الامر بالمحب الى مخاطبة المحبوبة بالفضة التي يخاطب بها التابع متبوعه والصد سيده ، معلنا الطاعة والولاء الابديين ، فيقول بالازول :

حيثما كنت ، واينما سرت ، فاني اتمنى لو انها اعتبرتني تابعها ، حتى ولو لم اتوقع منها بهجة ، فاني اؤدي لها الولاء واسلم نفسي اليها . (٣٤)

ويخاطب برنارد حبيبته بنفس الاسلوب ، معلنا نفسه خادما وتابعا امينا لها فيقول :

يا سيدتي الطيبة ، لا اطلب منك الا ان تقبليني خادما . وسوف اسهر على خدمتك كاحسن سيد لي . (٣٥)

اما جوسر فيضع على لسان الحبيبة كلمات تملن بها لحبيبتها - وهو ابن ملك - ان كونه اميرا لا يغير شيئا من قانون الحب الذي يخولها

ويعود في مكان اخر فيؤكد هذه الحقيقة قائلا :

كثيرا ما احدث نفسي فاقول : لقد كانت فاسية وبخيلة معي حقا . (٢٠)

ويخيل الى التروبادور احيانا ان حبيبته موشكة على قتله بتمنئها وبخلها ، فيؤكد ان ما يسرها يسره ، فهو لا يتشكى ولو قتلته :
انا تحت رحمتها ، ولو سرها قتلي فسوف تجنني راضيا لا اتشكى . (٢١)

ويحدث ان يثور المحب المانع بالاذى ، فيعمد الى لوم الحبيبة وتهديدها بالحساب الصير ، فيقول ارنوت دي مارديل في هذا المعنى :
ستحاكمين حبيب قانون الحب ، وستعاسيين وتلاميذ ، انت التي حملني ظلما واورتني سقما . (٢٢)

ويفسر جوسر تمنع الحبيبة وعذاب المحب تفسيريا في صالح الحب ، اذ يقول ان من تمنع بخله الحب فقط ، ولم يلق مرارة ، فقد جهل انجبه . ويصفها جوسر كما يلي :

and thynketh how that ye
Han felt that love dorste you displese ,
Or ye had wonne him with to grete an ese
(1 , 25 - 28)

هذه المعاني جميعها واردة في شعرنا العربي ، اذ لا تكاد قصيدة غزل تخلو من شكوى الشاعر وطلبه الرحمة والشفقة من الحبيبة المتمتعة بالفاسية البخيلة ، فبشيئة - كما يصفها لنا جميل - موصوفة ومولعة بالبخل :

الا انها ليست تجود لذي الهوى بل البخل منها شيمواخللاق(٢٣)
ويؤكد جميل ان غريمه المورس - بتيئة . مولع بالبخل والمطل ، فلا يقضي دينا ولا يرحم الفقير التطلع الى نواله حيث يقول جميل :
اني اليك بما وعدت لناظر نظر الفقير الى الفسني المورس تنضي الديون وليس ينجز موعدا هذا الغريم لنا وليس بمسر (٢٤)

ويصود جميل فيخبرنا ان بخل بتيئة ودلالها قد سلبا ليه فيقول :
ولست على بذل الصفاء هويتها ولكن سينتي بالدلال وبالبخل (٢٥)
وجميل ، ان قتلته بتيئة ، فهو لا يكتفي بما اكتفى به التروبادور من الرضا وعدم التشكي ، وانما يبكي حبا وشوقا الى قائله ، فهو يقول :
خليلي فيما عشتما هل رايتما فتيتلا بكى من حب فاته لقبلي؟ (٢٦)
ويخبرنا كثير عن تمنع الحبيبة وبخلها على الرغم من زيارته الفليلة لها فيقول :

اراكم اذا ما زرتكم - وزيارتي قليل - يرى منكم الي قطوب (٢٧)
اما ابن الاحنف فيحدثنا عن الشفاء الذي يقاسيه نتيجة بخل الحبيبة وتمنعها فيقول :

لمري ، لشتي بين حران هائم ويبسن رخسي باله متسودع وهبت لها نفسي فضنت بوصلها فيا لك من مطع ومن متمنع (٢٨)
تلك الحبيبة الموصوفة بالجمال والظرف وحلاوة الحديث ، مع ما فيها من تمنع وتعزز ودلال ، لا بد ان تكون لها المكانة العليا في دنيا الحب ، اذ انها تتحكم برعاياها مفدقة فضلها ورضاها على من يستحقون وامانتهم حين لا يستحقون .

Andreas, op. cit. , 51. (٢٩)

Ibid. , 184. (٣٠)

Ibid. , 81. (٣١)

T. Newcombe, « The Troubadour Berenger De Palazol , » palazol , Nottingham Medieval Studies , XV (1971) , 77.

Ibid . 77 . (٣٢)

Ibid . 65 . (٣٤)

Bernard, op. cit. , 134. (٣٥)

Ibid. , 63. (٢٠)

Ibid. , 20 . (٢١)

Quoted by Chaytor, The Troubadours, 76. (٢٢)

(٢٣) ديوان جميل بتيئة ، ٧٢

(٢٤) المصدر نفسه ، ٤٧

(٢٥) المصدر نفسه ، ٧٨

(٢٦) المصدر نفسه ٧٨

(٢٧) ديوان كثير مزة ، ١٦٥

(٢٨) ديوان ابن الاحنف ، ١٦٢

هي الامر والنهي .

ويجيب الحبيب مؤكداً قبوله ، ومعلنا نفسه تابعا مواليا للحبيبة ،
وواضحا بين يديها كل امتيازاته الملكية :

« But nathles , this warne I you » , quod she ,

« A kynges son although ye be , ywys ,

Ye shal namore hansovereigente

Of me in love , than in that cas is »

(173 - 170 , 111)

ويخبرنا جوسر أن ترويلس قد نخلت عن امتيازاته كأمير الـ

كريسدا واصبح تابعا بكل سرور :

« . . . and with ful humble chere

Bicome hir man , as , to my lady dere »

(31 - 430 , 1)

ونحن إذ نعود الى تراننا العربي ، نجد أن مثل تلك الاسس
والمبادئ التي نتحكم في دنيا الحب الاوربي ، كانت قد صورت كواقع
عاشه المحبون العرب وذكروه في اشعارهم تتناولها الناس في اخبارهم .
ففي سيرة بطلات قصص الحب المعروفة لدينا ما يؤكد ان حرية
اختيار الحبيب كانت حقا من حقوق المرأة ، كما كانت لها حرية تقدير
ما تعطي ذلك الحبيب وما تمنعه . فالمرأة العربية إذ تزوج ممن لا تحب
تمشيا مع العرف القبلي الذي يستهجن تزويج من جرى بينهما عشق ،
فان ذلك العرف ما كان يستطيع ان يمنع استمرار المرأة بعد الزواج
من ان تكون عاشقة ومشوقة . وهي ان كانت بموجب قانون القبيلة او
قانون الدين خاضعة ومطيعه لزوجها ، فانها بموجب قانون الحب
أمره وسيدة لحبيبها . يخبرنا صاحب الاغاني ان عروة بن حزام ، وهو
من عذرة ، كان أحد العشاق الذين قتلهم المشق ، اما صاحبه فهي
عفراء بنت مالك الطرية وقد زوجها ابوها رجلا اخر ، الا ان علاقة
عروة استمرت بها ، وكان يلم بها سرا . وحين بلغ الحبيبة موت
عروة ، استأذنت زوجها في الخروج لتتدب الرجل الذي احبها واحبته
قاتلة لزوجها :

يا هناء ! قد كان من امر هذا الرجل ما قد علمت ، وما كان والله
الا على الحسن الجميل ، وقد بلغني انه مات في ارض غربة ، فان رأيت
ان تأذني لي فاخرج في نسوة من فومي فننديه ونبكي عليه .

فأذن لها ، فخرجت ، فما زالت تندبه ثلاثا حتى توفيت في اليوم
الرابع . قيل وقد بلغ معاوية بن ابي سفيان خبرهما فقال : لو
علمت بحال هذين الثرين الكريمين لجمعت بينهما . (٣٦)

هذه القصة وسواها من قصص واخبار واشعار تروى عن خلات
واحاديث ومطارحات هوى بين بثينة وجميل (٢٧) ، عزة وكثير (٢٨) ،
لبنى وفيس (٣٩) وغيرهم من مشاهير العشاق (٤٠) ، لتدل دلالة
واضحة على ان هؤلاء النسوة انما كن يقدمن الحب والوفاء حتى
الموت لمن اخترنهم احبابا . اما قول معاوية حين سماعه خبر عفراء وعروة ،

(٣٦) ابن قتيبة ، المصدر المذكور ، ٢ ، ٥١٩ - ٢٣ ، الاصفهاني ،
المصدر المذكور ، ٢٠ ، ٣٦٦ - ٣٧٨ .

(٢٧) الاصفهاني ، ٧ ، ١٤٠ ، ابن قتيبة ، ١ ، ٣٥٢ .

(٢٨) الاصفهاني ، ٨ ، ٥٢ - ٨٥ ، ابن قتيبة ، ٤١٠ - ٤٢٢ .

(٣٩) الاصفهاني ، ٨ ، ٢١٨ - ٢٥٩ ، ابن قتيبة ، ٢ ، ٥٢٤ .

(٤٠) الاصفهاني ، ١ ، ٥٩ - ٩٠ ، ابن قتيبة ، ٢ ، ٤٦٧ ،

البغدادي ، المصدر المذكور ، ١ ، ٣٧٤ ، انظر في اخبار ليلى الاخيلية
وتوبه بن الحمي : الاصفهاني ، ١ ، ١٢١ - ١٦٤ ، القالي ، ١ ، ٨٧ ،

الانطاكي ، ٢ ، ١١٥ .

فدليل على ان الخليفة لم يستهجن او يستفتح علاقة الحب تلك ،
بل على انعكس ، أبدى اسفه لعدم ادراكه الحبيين والجمع بينهما .
هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان تلك القصص والاخبار والاشعار
تبرز المرأة وكانها هي واهبة الحب او سالبته ، وهي المالكة الامر
والناحية في دنياه . ويؤكد العشاق رضوخهم وانصياعهم لمن يحبون
سواء انالوا ام لم ينالوا ما يفتون . فالمجنون يخبرنا ان ليلى هي
الحاكم الذي لا ينقض له حكم ، فيقول :

واني لاهواها مسينا ومحسنا واقضي على نفسي لها بالذي نقضي (٤١)
ويقول حين خيرت ليلى في الذي تفضله زوجها لها :

الا ياليل ان ملكت فينا خيارك ، فانظري لمن الخيار (٤٢)

فاختارت وردا وتزوجته ، ولكنها ابقته على قيس حبيبا . ويقول
قيس في مكان اخر ان ليلى حرة فيما تعطيه او تمنعه ، وما عليه الا
احترام ارادتها :

واخذ ما اعطيت عفوا وانسي لاؤر عما تكرهين هوب (٤٣)
واشعار جميل تؤكد الرأي نفسه ، فهو يحكم بثينة في امره
ويرضى بما ترضاه له فيقول :

ابئين أنك قد ملكت فاسجحي وخذي بحظك من كريم واصل (٤٤)

اما ما يذكره جميل في دالته الشهيرة عما جرى من حوار بين
الحبيين ، فيكشف لنا ان مقاليد الامور بين يديها وان احكامها
نافذة ، اذ يقول جميل في هذا :

اذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي من الحب قالت : نابت ويزيد
وانقلت: ردي بعض عقلي اعشبهه تولت وقالت : ذاك منك بعيد

فلا انا مردود بما جئت طالبا ولا جهسا فيما بيد بيد (٤٥)
ونرى كذلك ان ابن الاحنف لا يكتفي بمبوديته للمرأة بل يسأل

الناس جميعهم ان يعلنوا هذه العبودية فيقول :

ولقد قلت والهموم ركود ودعومي على الرداء تجود
يا بنسي آدم تعالوا ننادي انما نحن للنساء عبيد (٤٦)

وهو يعبر عن اطاعته للمحبوبة الى احد امتناعه عن شرب الماء
ان هي امرته بذلك ، فيقول :

صب بمصياي ولو قال لي لا تشرب البارد لسم اشرب (٤٧)
وابن المعتز يعلن اسره وخضوعه لاوامر الحب وطلبه الرحمة

والاستجارة ، وهو الامير العباسي الجليل ، ممن يحب ، فيقول :

اسر الحب اميرا لم يكن قبيل اسيرا
فارحموا ذل عزيز صارعبدا مستجيرا (٤٨)

ويصف ابن زيدون - وهو ذو الوزارتين - عز الحبيبة وذلك ،
وطاعته اياها ، فيقول :

نه احتمل ، واستظل اصبر ، وعزاهن

ولل اقبل ، وقل اسمع ، ومر اطع (٤٩)
تلك هي المرأة التي رفعها الجمال فارتفعت ، وحكمها الحساب

فتحكمت ، وهي الصورة التي عرفناها خلال الاشعار والاخبار الواردة
في كلا التراثين الادبيين العربي والاوربي . ولم يقتصر ذلك التراث او
هذا على منح المرأة تلك الصفات والامتيازات بل تعديها الى ما هو

(٤١) ديوان مجنون ليلى ، تحقيق فراج ، ٥٧

(٤٢) الاصفهاني ، ١ ، ٦٦

(٤٣) ديوان مجنون ليلى ، ٥٧ .

(٤٤) ديوان جميل بثينة ، ٨٦ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ٣٠ .

(٤٦) ديوان ابن الاحنف ، ٩٩ .

(٤٧) ديوان ابن الاحنف ، ٢٨ .

(٤٨) ديوان المعاني للمسكري ، ١٤١ .

(٤٩) ديوان ابن زيدون ، ١٣٧ .

ويعترف انوت دانيال قائلا :
 اما تجاه رؤية الاخرين فانا اعمى ، واما تجاهها
 يقولون فانا اصم ، هي الانسان الوحيد الذي احقق
 فيه وازاه واسمعه . (٥٥)

ويكتب جوسر بنفس التراث فيقول ان ترويلس ، الامير الطروادي،
 حين احب كرسيدا ، نسي ما عداها ، بما في ذلك الخطر المحقق
 بطراودة من قبل اليونان ، لقد استقرت في عقل العاشق خاطرة واحدة،
 هي ان كانت كرسيدا تحبه ام لا . يقول جوسر :

Ali other dredes weren from him fledde ,
 Both of the assege and his sovacioun .
 N'yn him desir noon other foumes bredde ,
 But argumentes to his conclusioun
 That she on him wolde han compassioun .
 (1 , 465 - 70)

هذه الصور التي وردت في الادب الاوربي كلها واردة في تراننا
 العربي قبل ذلك بقرون. فمجنون ليلى يخبرنا ان ليلى هي شغله الشاغل،
 فلا يرى ولا يسمع سواها ، فهو يقول :

وشغلت عن فهم الحديث سوى ما كان منك وحكم شغلي
 واديم لحظ محدثي كما يرى ان قد فهمت وعندكم عقلي (٥٦)
 ويضع المجنون ليلا بمكانة بمادله ، وذلك في قدرتها على
 اسعاده او اشقائه حسبما تشاء ، فيقول :

وانت التي ان شئت نفضت عيشتي ولو شئت بعد الله اسعدت حالي (٥٧)
 وكما يصلي الشاعر الاوربي راكما في محراب الحبيبة ، كذلك
 يطلي المجنون متخذا من دار ليلى قبلة لصلاته ، اذ يقول :
 تراني اذا صليت يممت نحوها بوجهي ، وان كان المصلي وراثيا (٥٨)

وعروة بن حزام ينسى ما كان اعده ويبهت حتى ليكاد لا يجد جوابا
 ان سئل ، كل ذلك بسبب رؤية عفراء فجأة ، فهو يقول :

وما هو الا ان اراها فجأة فابهت حتى ما اكاد اجيب
 واصدف عن رأيي الذي كنت ارتئي وانسى الذي اعدت حين تقيب (٥٩)
 وجهيسل ، اذ يلتقي مع بشينة ، ينسيه جلال اللغاء ان يبشها الامه
 وتباريح اشواقه ، فهو يقول :

واني لينسيني لقاؤك كعسا لفتيتك يوما ان ابشك ما بيا (٦٠)
 وهو لا يعير اذنا صافية لمن يدعو للمساهمة في الجهاد ، اذ ان له
 من بشينة ما يشغله عن الجهاد ، وفوق ذلك فهو هتير حبه جهادا يثاب
 عليه بالشهادة :

يقولون جاهد يا جهيل بفزوة واي جهاد فيرهن اريسد
 لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد (٦١)

Ibid. , 294.

(٥٥)

(٥٦) ديوان مجنون ليلى ، ٦٠

(٥٧) المصدر نفسه ، ٦٠ .

(٥٨) المصدر نفسه ، ٢٩٣ .

(٥٩) الاصفهاني ، ٢٠ ، ٢٧٣ .

(٦٠) ديوان جميل بشينة ، ١٢٢ .

(٦١) المصدر نفسه ، ٣٣ .

اكثر من ذلك . اذ غالبا ما نحس بان لتلك المرأة من المزايا والقدرات
 والكرامات ما يعطيها عن مرتبة البشر ويدنيها من الالهوية . فهي
 اذ تبدو فجأة لعيني حبيبها ، يبهره جمالها وجلالها فيبهت وينسى ما
 يريد ان يقوله لها . فالعاشق في كتاب اندريس يناجي حبيبته قائلا

حين رايتك اضطربت روحي وتبلبل فكري ، فنسيت
 حتى الكلمات التي كنت اعدتها لاثبك بها وجدي . (٥٠)

ويخبرنا جوسر ان ترويلس كان قد اعد ما يقوله لكرسيدا وهيا
 كلمات الشوق وعبارات الشكوى ، ولكن ما ان رآها حتى نسي ما
 كان اعده ، ولم يستطع ان يردد غير كلمة واحدة هي : الرحمة ، الرحمة
 يا حبيبتي :

« Mercy , Mercy , swete herte » (111 , 50 - 75)

والحبيبة قادرة على ان تميت وتحيي عاشقها ، فالشاعر الانكليزي
 المذكور يخاطب كرسيدا على لسان الصديق الناصح قائلا لها : افعلي
 ما تشائين من اجل حياته او من اجل موته :

« . . . what should I moore seye ?

Do what you lest to make hym lyve or deye »

(11 , 321 , 22)

ويخاطب الصديق صديقه العاشق مؤكدا له ان موته في الحب
 يعني الشهادة له والخلود في السماء :

« And if thou deye a martyre go to hevене »

(1V , 624)

وتعرف الحبيبة هذه الحقيقة فتناجي نفسها قائلة : ان حياته وموته
 الان هما رهن اشارتي :

« And yet hie lif al lith niw in my cure »

(11 , 742)

اما برنارد فانه ينتجه الى الحبيبة حاني الرأس ، راكما ومسلما
 اليها نفسه :

بيدين مشبكين ورأس محني ، اتوجه اليك

راكما او واقفا ، مسلما نفسي الى حكمك الشريف . (٥١)

وحبيبة برنارد تستطيع ان تحييه بعد ان يموت مقتولا بيدها ،
 فهو يقول :

كان باستطاعتها ان تحييني بعد ما قتلتنني ، وحينذاك

تكون قد قضت بما تشاء . (٥٢)

وتلك حبيبة اخرى هي الطبيب والدواء والبلسم الشافي لسن
 اصابه سهم الموت :

سيدتي ، انت الطبيب والدواء والبلسم الشافي لمن

صرعه الردى . (٥٣)

فلا عجب - بعد هذا كله - ان اصبحت الحبيبة شغل حبيبها
 الشاغل ، فلا يفكر الا بها ، ولا يرى او يسمع سواها . فالتروبادورز
 يؤكدون ان همومهم ومشاكلهم كلها قد تركزت حول مشورتاتهم ، وانهم
 منصرفون اليهن ناسون ما عداهن . يقول بيير رامون :

منذ ان جرحت بنظراتها الحلوة ، لم اعد افكر بشيء

سواها ، لم تعد تخطر لي خاطرة اخرى ، ولم يعد

يستهويني عمل اخر . (٥٤)

Andreas, op. cit. , 42.

(٥٠)

Bernard, op. cit. , 96.

(٥١)

Ibid. , 70.

(٥٢)

Chaylor , The Troubadours in England , 121

(٥٣)

kirby, op. cit. , 294.

(٥٤)

ويذكر جميل محبوبته ويشغله ذكرها والحجيج بين سماع وموجف في مكة ، فهو يقول :

ويبين الصفا والموتين ذكركم بمختلف ، والناس ساع وموجف (٦٢)

ويكي حين يصلي ، لا من خشية الله ، ولكن من ذكره الحبيبة ، فيقول في هذا :

اصلي فابكي في الصلاة نذكرها لي الويل مما يكتب الملكان (٦٣)

والحبيبة في ادبنا العربي لها القدرة على اعادة الحياة ويمت الاموات . فليلى الاخيلية تستطيع ان ترد الروح الى حبيبتها توبه ، وذلك ان حدث وسلمت عليه وهو تحت طبقات التراب ، اذ يقول :

ولو ان ليلى الاخيلية سلمت عليّ ودوني جنبدل وصفائح وسلمت تسليم البشاشة او زقا اليها صدى من جانب القبر صائح (٦٤)

وحديث عزة يجعل الرهبان المتسكين يخرن ساجدين الى الارض ، واما مستها فتذهب الحياة والخلود للموتى . يقول كثير في هذا :

رهبان مدين والذين عهدتهم يكون من حذر العذاب قموذا لو يسمعون كما سمعت كلامها خسروا لمة ركما وسجودا والميت ينشر ان تمس عظامه مسا ، ويخلد ان يراك خلودا (٦٥)

اما ريق بثينة فهو اكسير الحياة الذي يبعث الاموات من قبورهم ، وذلك في قول جميل :

مفلجة الابواب لو ان ريقها يداويه الموتى لقاموا من القبر (٦٦)

واما فوز فان ريقها له مفعول سحري ، فهو يتيق السقم اسد الدهر ، يقول ابن الاحنف :

تلك التي لو ذقت من ريقها ما ذقت سقما اخر الدهر (٦٧)

ونظرها تجرحه وتداويه ، فهو يقول :

فيا لسك نظرة اودت بقلبي . وخلف سهمها جسمي جريحا فليت اميرتسي جادت باخرى فكانت بعض ماينكا القروحا (٦٨)

وتلك الحبيبة لها القدرة ايضا على ان تميته وتحييه ، فهو يقول :

ما انصف العشوق من عاشق ينام والعاشق يكيه يميته بالصد لكنما ليس بغير وصل منه يحيه (٦٩)

ان الامثلة والشواهد التي اوردها في هذا الفصل تشير الى ان المحبوبة التي قدمها لنا الادب الاوربي والادب العربي قبله ، هي المرأة والمعبودة في وقت واحد ، اذ هي الانثى الساحرة بجمالها الجسدي ، والاسرة بظرفها وتمنحها ودلالها ، وهي المعبودة الجديرة بالعبادة والولاء والتضحية ، فهي قادرة على اسعاد الرجل واشقائه ، ويبين يديها مفاتيح الجنة والنار .

التتمة في العدد القادم

- (٦٢) المصدر نفسه ، ٦٤ .
- (٦٣) المصدر السابق ، ١٠٩ .
- (٦٤) القالي ، المصدر نفسه ، ١ ، ٨٧ .
- (٦٥) ديوان كثير عزة ، ٤٤١ .
- (٦٦) ديوان جميل بثينة ، ٤٤ .
- (٦٧) ديوان ابن الاحنف ، ١٤٣ .
- (٦٨) المصدر نفسه ، ٩٤ .
- (٦٩) المصدر نفسه ، تحقيق عاتكة الخزرجي ، ٢٨٤ .

السورة والثورة المضارة

تأليف هيرت ماركوز
ترجمة جورج طرابيشي

نحو حَسَّاسِيَّةٍ ثَوْرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ

في الوقت الذي توجه فيه الرأسمالية اهتمامها الاول الى اخماد حرائق التمرد والثورة داخل حدودها وخارجها على حد سواء ، تبدو انها شرعت باعادة تنظيم نفسها تحسبا وتحاشيا لخطر ما يزال غامضا لكنه كلي الحضور ، خطر حركة تعانق لاول مرة في التاريخ الكرة الارضية بأسرها . وازاء الاعراض الاولى لهذا الخطر المستطير تنكب الرأسمالية على تأسيس الثورة المضادة وتكريسها . هذا لا يعني انها لم تعد تنجب بنفسها حفاري قبرها ، ولكن وجوههم تختلف اليوم عما كان متوقعا ، كمالهم يعد شاغلهم الاوحد تغيير العلاقات الانتاجية والطبقية ، وانما ايضا العلاقات بين الانسان والطبيعة ، طبيعته الذاتية والطبيعة المحيطة به ، وكلتاها على حد سواء عرضة اليوم لتخريب منهج .

في هذا الكتاب الجديد الهام يرسم ماركوز ، عبر تحجر النظريات الثورية المعبودة ، المعالم العريضة لحساسية ثورية جديدة .

منشورات دار الآداب